الرُّؤيــة النَّبــويّة الشَّــريفة للشِّــعْر

د . بركات محمد أحمد محمد(*)

مُقَدِّمَة:

لقد كان للشِّعْر دورٌ كبيرٌ في حياة العـرب، فهـو لسـان حالهـا، المعبّـر عـن آلامها وآمالها، والمقيّد لأنسابها وتاريخها وأيامها، فهو بحقّ ديـوان لعلـوم العـرب وأخبارهـم.

وإذا كان لهذا الفنّ الرّفيع دور بارز في توجيه النّفـوس العربيّـة إلى الخـير وترغيبها فيه، والحثّ على الفضائل والمكرمات وتزيينها لهم؛ فإنّه ساهم إلى حد بعيد في تأجيج النّفوس، وإذكاء نار الحرب، والدّعوة إلى الأخذ بالثَّـأر، وتخويـف النَّاس؛ ولذا من الضّروريّ أنْ تستفيد النُّبوة الشَّريفة من هـذا التُّـراث التّليـد والسّلاح الماضي في مواجهـة الطُّغـاة وأعـداء الـدّعوة، وتقـديم الخـير للنّـاس، وبالفعل فقد دافع شعراء الدّعوة الإسلاميّة عنها كحسّان بـن ثابـت وعبـد الله ابن رواحة وغيرهما.

نظراً إلى أهميـة العصـر النَّبـويّ ، وتمشـيّاً مـع طبيعـة الموضـوع اكتفيـت بالحديث عن الرُّؤية النَّبويّة الشَّريفة للشِّعْر، وهي تمثّل الرُّؤية القرآنيّـة للشِّـعْر وموقف الإسلام منه عامّة.

وقد قمتُ بتقسيم هذا الموضوع إلى ثلاثة مباحث بعد المقدمة، جاء المبحث الأول موجزاً لمكانة الشِّعْر عند العرب قبل بعثة النّبيّ ﷺ، بينمـا كـان المبحـث

(*) أستاذ مساعد بقسم اللُّغة العربيّة، كلية التَّربيّة، فرع الجامعة بولاية الجزيرة.

الثاني مشتملاً على بعض مواقف النُّبوة الشَّريفة من الشِّعْر قولاً وفعلاً، وجاء المبحث الثالث بعنوان: شبهات حول الموضوع، وهو عبارة عن نصوص أشكلت على بعض الدّارسين أو لم تُفْهَم الفهم الكامل، ثم ختمت بخاتمة موجزة اشتملت على النّتائج والتّوصيات.

المبحث الأول
مكانة الشِّعْر عند العرب قبل بعثة النّبيّ ﷺ

من المعلوم دور الكلمة البليغة وتأثيرها على النُّفوس وخاصة الشِّعْر منها، فقد كان ذا مكانة رفيعة، ويُعَدُّ لغة قوم وعلم مَنْ لم يكن لهم علم أصحّ منه[1].

ومما جاء في مكانة الشِّعْر قول أبي هلال العسكري: "لا تُعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ومواقعها إلاَّ من جملة أشعارهم، فالشِّعْر ديوان العرب وخزينة حكمتها"[2].

وللشِّعْر منزلة عظيمة عند العرب، وللشَّاعر مكانة لا تضاهى عندهم، فإذا نبغ في القبيلة شاعر هنأتها القبائل الأخرى، وصنعت لها الأطعمة، وأعلنت الأفراح؛ لأنَّه حماية لأعراضهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلاَّ بغلام يُولَد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج[3].

---

(١) الجمحي؛ ابن سلام: طبقات فحول الشِّعْراء، تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة القاهرة، ص ٢٤.

(٢) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٢٨.

(٣) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشِّعْر وأدبه ونقده، تحقيق محمد محي الدين، الطبعة الخامسة، دار الجيل، ص ٢٥.

وقد رُوِيَ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ترفعه قالت: قال رسول الله ﷺ: (الشِّعْر كلام من كلام العرب جزل، تتكلّم به في بواديها، وتسل به الضّغائن من بينها)[1].

وجاء عن عمر بن الخطاب ﷺ: "مُرْ مَنْ قِبَلك بتعلُّم الشِّعْر؛ فإنَّه يدلُّ على معالي الأخلاق، وصواب الرَّأي ، ومعرفة الأنساب"[2].

وقال ابن رشيق: "ومن هنا عظم الشِّعْر، وتهيب أهله، خوفاً من بيت سافر تحدو به الإبل، أو لفظة شاردة يضرب بها المثل، ورجاء في مثل ذلك فقد رفع كثيراً من النّاس ما قيل فيهم من الشِّعْر بعد الخمول والاطراح، حتَّى افتخروا بما كانوا يعيّرون به، ووضع جماعة من أهل السّوابق والأقدار الشَّريفة حتى عُيِّروا بما كانوا يفتخرون به"[3].

إنَّ العرب لا تَعُدُّ الشِّعْر درساً أدبيّاً فحسب؛ بل هو عندهم جماع الحياة كلها، فيه يقرأون تاريخهم، ويلتمسون منهاج تربية أبنائهم. قال سيدنا معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ: "يجب على الرجل تأديب ولده، والشِّعْر أعلى مراتب الأدب"[4].

وما تكاد القصيدة تُروى حتى تسير بها الرُّواة، وتنشرها المجالس ، قال المسيب بن علس[5]:

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص٢٩، لم أجد له أصلاً في الصحاح والسنن.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص٢٩.

(٣) ابن رشيق: العمدة، ١٢٢/١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ٢٩/١.

(٥) المسيب بن علس: هو زهير بن مالك بن عمرو بن زيد بن ثعلبة، شاعر جاهلي لم يدرك الإسلام. انظر: المفضليات، ص ٦٠.

فلأهـدينَّ مـع الرِّيـاحِ قصـيدةً مــني مغلغلــةً إلى القعقــاعِ
تــرد الميــاه فــلا تــزال غريبــةً في القــوم بــين تمثُّــلٍ وسمــاعِ[1]

فقصيدته تنتشر بين القبائل ويرددها الناس مستمعين ومتمثلين بأبياتها. والأمثلة كثيرة لشعراء حموا أعراض قبائلهم، ولشعراء تشفّعوا لقبائلهم ولأفراد منها فشفعوا، وشعراء رفعوا الوضيع ووضعوا الرّفيع .

والأعشى[2] يقدم مكة، ويمدح المحلق، ويذكر كرمه، وشرفه، وحسن صفاته، بعد فقر وخمول ذكر ... ثم تحدّث عن بناته فقال:

أرقـت ومـا هـذا السُّـهاد المـؤرق وما بي من سقم وما بـي معشـق
نَفَـى الـذَّمَّ عـن آل المحلَّـقِ جَفنـةٌ كجابيةِ الشَّيخِ العراقـيِّ تفهـق[3]

فما إِنْ أتمَّ قصيدته حتى انثال على المحلق الأشراف من كل قبيلة يهنئونه ويخطبون بناته العوانس، فلم تُمْسِ منهن واحدة إلاَّ في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضِعْف[4].

(١) المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، الطبعة السابعة، دار المعارف، ص ٦٢. فهذه الأبيات تؤكد سلامة النقل.

(٢) هو الأعشى الكبير أبو بصير، ميمون ابن قيس بن جندل بن شراحبيل بن عوف بن سعد، يلقَّب بـ "صناجة العرب"، أمه بنت علس أخت المسيب بن علس ولد بقرية منفوحة باليمامة. انظر: المرزباني: معجم الشّعْراء، تحقيق عبد السَّتار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م، ص ٣٢٥.

(٣) الأعشى؛ ميمون بن قيس: ديوان الأعشى، شرح د يوسف فرحات، دار الدين، بيروت، ١٩٩٢م، الطبعة الأولى، ص ١٧٧.

(٤) ابن رشيق: العمدة، ٢٥/١.

وكان بنو (أنف الناقة) يأنفون من هذا اللَّقب، حتَّى إذا مدحهم الحطيئة[1] بقوله:

قوم هم الأنـف والأذنـاب غيرهـم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا[2]

صار اسمهم شرفاً لهم.

ولقد كانت القبيلة تحرص على روايـة شـعرها، فـتعلم صـغارها الشِّـعْر، وشعر أشعار القبيلة خاصة، كما كانت تفعل (تغلب) في تحفيظ أبنائهـا معلقـة عمرو بن كلثوم[3]، فهجاها شاعر (بكر) بقوله:

ألهى بني تغلـب عـن كُـلِّ مكرمـةٍ قصـيدة قالهـا عمـرو بـن كلثـوم

يروونهـا أبـداً مـذ كـان أوّلهـم يا للرِّجالِ لشـعرٍ غـير مسـؤوم[4]

(١) الحطيئة: هو جرول بن أوس بن مخزوم بن مالك البسي، نشأ مغموراً في نسـبه مملاقـاً، لم يكـن يقـتني المال ولا يحسن إمساكه، وهو ينتمـي إلى مدرسـة زهـير الشِّـعْرية. انظـر: الأصـفهاني؛ أبـو الفـرج: الأغاني، دار الثقافة، بيروت.

(٢) الحطيئة؛ جرول بن أوس: ديوان الحطيئة من رواية حبيب بن الأعرابي وأبي عمرو الشـيباني، المكتبـة الثقافية، بيروت، لبنان.

(٣) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن أسد بن زهير بن جشم بن بكر، ينتهـي نسـبه إلى معـد ابن عدنان، أمه ليلى بنت مهلهل أخ كليب، وهو الذي قتل عمـرو بـن هنـد. انظـر: أبـو الفـرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١١.

(٤) عمرو بن كلثوم: ديوان عمرو بن كلثوم، شرح عبد القـادر محمـد مـايو، دار القلـم العربـي، سـوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص ١٣٦.

المبحث الثاني
مواقف نبويّة من الشِّعْر

ثبت أنَّ لرسول الله ﷺ مواقف مؤيّدة للأدب ومشجّعة للأدباء، آخذة بيد الشِّعْر والشِّعْراء. ويتجلَّى ذلك في كثير من الأقوال والأفعال والمواقف النَّبويّة الشَّريفة، ومن ذلك قوله ﷺ: (إنَّ من البيان لسحراً، وإنَّ من الشِّعْر لحكمة)[1]. والمراد أنَّ في الشِّعْر كلاماً نافعاً يمنع الجهل والسفه وينهى عنهما.

ولقد كان الرّسول ﷺ يحثُّ شعراءه على أنْ ينزلوا إلى أرض المعركة ويجاهدوا المشركين بألسنتهم، مؤكِّدا أنَّ النُّصرة لا تكون بالسّنان وحده؛ بل بالسِّنان واللِّسان معاً، فقال ﷺ: (جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم)[2]. وقال أيضاً: (جاهدوا المشركين بألسنتكم، وأنفسكم، وأموالكم، وأيديكم)[3].

وعن كعب بن مالك أنَّه أتى النّبيّ ﷺ فقال: إنَّ الله تعالى قد أنزل في الشِّعْر ما قد علمت، وكيف ترى فيه؟ فقال النّبيّ ﷺ: (إنَّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه)[4].

فالجهاد كما بيَّن النّبيّ ﷺ في هذه الأحاديث ضروب، والشِّعْر أحد أنواعها، فهناك جهاد بالنّفس حين يجود بها المرء منعتقاً من جُبنه، شارياً بالنّفس الفانية

(١) البخاريّ؛ محمد بن إسماعيل: صحيح البخاريّ، دار الجيل، بيروت، ٤٣/٨؛ مسلم مطبعة الحلبي، ٤٦/٤؛ أبو داود: السنن، مطبعة السعادة، ص ٤١٥؛ الأصفهاني؛ أبو الفرج: الأغاني، ١٣٧/٤.

(٢) مسند الإمام أحمد، باب مسند أنس ﷺ، برقم ١١٧٩٨.

(٣) سنن النّسائيّ، باب وجوب الجهاد، برقم ٣٠٤٥، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد، ٢٢/٣-٢٣.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ٣٠٧/٤.

نفساً باقية، تنعم بما عند الله تعالى من حسن الثّواب... وهناك جهاد بالمال حين يبذله المرء في سبيل الله تعالى متحدياً نوازع الشُّح في نفسه مقرضاً هذا المال قرضاً حسناً... وهناك جهاد بالكلمة يقف بها جنباً إلى جنب من الجهاد بالنّفس والمال؛ بل إنَّ الجهاد بالكلمة أندر، والحاجة إليه ـ بسبب ندرته ـ أشدّ؛ ذلك لأنَّ للنّاس جميعاً نفوساً يمكن أنْ يجودوا بها إذا صحَّت عزائمهم، وأنَّ لدى كثير من النَّاس مالاً يستطيعون أنْ يضحوا به إذا سمحت نفوسهم. ولكن سلاح الأدب نادر ثمين لا تملكه إلاَّ القلة القليلة في أي مجتمع من المجتمعات؛ ذلك لأنَّ قوامه الموهبة، والموهوبون قليل، لذلك فإنَّ حسّان يؤكِّد في شعره أنَّه لن يتوقف ولن يتوانى في مواجهة خصومه، حتّى يتراجعوا عن غيهم وضلالهم، ويتركوا عبادة الأصنام، ويتمسكوا بحبل الله المتين، فيقول ﷺ:

أمّا قريش فإنّي لستُ تاركهم ... حتّى يبينوا من الغيات للرُّشدِ
ويَتْرُكُوا اللات والعزى بمنزلة ... ويَسْجُدُوا كلّهم للخالقِ الصَّمدِ
ويشهدوا أنَّ ما قَالَ الرَّسولُ لهم ... حقّ ويُوفُوا بعهدِ الواحدِ الأحدِ(١)

ويوم اشتدّ إيذاء المشركين للدّعوة وصاحبها الأمين ﷺ؛ انتدب عصبة من الشِّعْراء ينافحون عن الإسلام ويدفعون أذى هؤلاء المعتدين، فبرز حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنهم ـ جميعاً، وقد دفعهم الرَّسول ﷺ إلى سلاح الجهاد قائلاً: (ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أنْ ينصروه بألسنتهم؟)(٢).

(١) حسان بن ثابت: ديوانه، ص ١٧١.

(٢) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، باب هجاء المشركين، ١٠/٥٤٧.

وقد كان رسول ﷺ يشجع حسّاناً ويحثّه ويدعو له بمثل قوله: (اللهم أيّده بروح القدس كما نافح عن نبيك)[1]، واستمع ﷺ لبعض هجائه فيمن ناوأ الإسلام فقال: (لهذا أشدّ عليهم من وقع النَّبل)[2].

وفي حديث آخر عنه ﷺ أنَّه قال: (أَمَرْتُ عبد الله بن رواحة بهجاء قريش فقال وأحسن، وأَمَرْتُ كعب بن مالك فقال وأحسن، وأَمَرْتُ حسّان فشفى واستشفى)[3].

ويُرْوى عنه أنَّه قال لحسّان بن ثابت ﷺ: (اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم، وأيامهم، وأحسابهم، ثم اهجهم وجبريل معك)[4].

وقد أدرك النّبيّ ﷺ خطورة هذا السّلاح، وأثره في النّفوس، فأعلنها حرباً عنيفة على هؤلاء الشِّعْراء، فأباح دماء بعضهم، ليقطع جذورهم، وليكونوا عبرة لغيرهم، فلما بلغه قدوم كعب بن الأشرف الشَّاعر اليهوديّ[5] المدينة قال: (اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشَّرّ وقوله الأشعار)[6]، وقال أيضاً: (مَنْ لي بابن الأشرف فقد آذاني؟)[7].

(١) البخاري؛ محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، طبعة دار الجيل، ص ٤٣؛ مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، مطبعة الحلبي، ص ٤٦، أبو داود: السنن، مطبعة السعادة، ص ٤١٥.

(٢) ابن خزيمة: صحيح ابن خزيمة، تحقيق يحيى مختار غزاوي، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت، ١٤٨/٢.

(٣) مسلم بن الحجاج: الصحيح، حديث رقم ٢٤٩٠، ١٩٣٦/٤.

(٤) أحمد: المسند، ٣٠٢/٤.

(٥) هو كعب بن الأشرف، كان شاعراً يهودياً يهجو النّبيّ ﷺ وأصحابه ويحرض عليهم كفار قريش في شعره، وكان يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم، أمر النّبيّ ﷺ بقتله، فقتله محمد بن مسلمة. انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ٥٤/٣ وما بعدها، الواقدي: المغازي، ٢٨٤/١ وما بعدها.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، ٥٤/٣.

(٧) الواقدي: المغازي، ١٨٧/١.

كما أنَّه أباح دم كعب بن زهير عندما عرَّض بالإسلام والنُّبوة، ولكنه عفا عنه عندما تاب واستشفع بأبياته التي سيأتي ذكرها فيما بعد.

بجانب ذلك؛ فقد كان الرَّسول ﷺ يحب سماع الشِّعْر الدَّاعي إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الصِّفات، وروائع الحِكَم، ويكرم الشِّعْراء ويكافؤهم جزاء ما فعلوا وقالوا، وخير ما يدلُّ على ذلك ما يرويه هشام بن عروة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ النّبيّ ﷺ بنى لحسّان بالمسجد منبراً ينشد عليه الشِّعْر[1].

وقد بلغ من إعجابه وتقديره ﷺ للشِّعْر أنْ خلع بردته وألقاها على كعب بن زهير مكافأة له[2]، حيث أنشده في مسجده لاميته المشهورة بـ (البردة):

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ ... متيّمٌ إثرها لم يُفْدِ مكبولُ

أُنبئتُ أنَّ رسولَ الله أوعدني ... والعفو عند رسولِ اللهِ مأمولُ

لا تأخذني بأقوالِ الوشاةِ ولم ... أُذنب ولو كَثُرَتْ فيّ الأقاويلُ

إنَّ الرَّسولَ لنورٌ يُستضاءُ بهِ ... مهنّدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ

في عصبةٍ من قريش قَالَ قائلهم ... ببطنِ مكةَ لما أسلموا زولوا

زالوا فما زَالَ أنكاس ولا كشف ... عند اللّقاء ولا ميل معازيلُ

شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيلُ[3]

(١) الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق أحمد عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م، ٣٨/٤.

(٢) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩٩٠م، ٦٧١/٣.

(٣) القرشي: جمهرة أشعار العرب، عبد الله الطيب، الحماسة الصغرى، مطبعة أكسفورد، لندن، ١٩٦٤م، ص ٥٠-٥١.

ومن إعجاب الرسول ﷺ ببديع الشِّعْر واستبشاره إيّاه؛ ما رواه مسلم عن عمرو بن الشّريد عن أبيه أنَّه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال: (هل معك من شعر أمية بن أبي الصّلت شيء؟) قلت: نعم، فقال: (هيه)، قال: فأنشدته بيتاً، فقال: (هيه) حتَّى أنشدته مائة بيت ...

وفي رواية أخرى قال: إنّه كاد ليسلم[1].

وأنشد النابغة الجعدي قوله:

أتيتُ رسولَ اللهِ إذْ جاءَ بالهدى ... ويتلو كتاباً كالمجرَّةِ نيّراً

بلغنا السّماءَ مجدنا وجدودنا ... وإنَّا لنرجو فوقَ ذلكَ مظهراً

فسأله رسول الله ﷺ ـ وقد أحسّ أنَّه يفخر فخر الجاهلية ـ: (إلى أين يا أبا ليلى؟) فقال: إلى الجنّة يا رسول الله!... فأُعجب ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ بمقاله، واغتبط بهذه الرُّوح حين هذّبها الإسلام: "إلى الجنّة يا رسول الله".

وينشده أيضاً:

ولا خيرَ في حلمٍ إذا لم تَكُن لَهُ ... بوادر تحمي صفوه أنْ يكدرا

ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكُن لَهُ ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فيزداد إعجاب الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، فيدعو له: (لا يفضّ الله فاك)[2].

وجاء وفد بني تميم إلى المدينة المنورة، فدخلوا المسجد ونادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات: أنْ اخرج إلينا يا محمد ... فآذى ذلك رسول الله ﷺ فخرج،

(١) النووي: شرح صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ٤/٤١.

(٢) النووي: شرح صحيح مسلم، ٤/٤١ وما بعدها.

فقالوا: جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: (قد أذنت لخطيبكم فليقل)، فقام عطارد بن الحجاب فألقى خطبة، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس الخزرجيّ: (قم فأجب الرّجل في خطبته)، فقام ثابت وألقى خطبة أبلغ من خطبة عطارد، ثم نهض الزبرقان بن بدر فأنشد قصيدته التي فيها:

نَحْنُ الكرامُ فلا حيّ يعادلنا ... منّا الملوك وفينا يُقسم الرّبع
ونَحْنُ نُطْعِمُ عند القحط مطعمنا ... من الشواءِ إذا لم يؤنس القرع

فلما أكمل قصيدته قال النّبيّ ﷺ: (قم يا حسّان فأجب الرّجل فيما قال)، فقال قصيدته التي فيها :

إنَّ الذوائبّ من فهرٍ وإخوتهم ... قد بيّنوا سُنَّةً للنّاس تتبعُ
يرضى بهم كلّ من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمرِ الذي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوهم ... أو حاولوا النَّفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... إنَّ الخلائق فاعلم شرّها البدعُ
إنْ كان في النّاسِ سباقون بعدهم ... فكُلّ سبقٍ لأدنى سبقهم تبع[1]

فلما فرغ حسّان من قوله؛ قال الأقرع بن حابس : وأبي إنَّ هذا الرجل لمؤتى ـ يعني موفق ـ لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا، وجوَّزهم النّبيّ ﷺ فأحسن جوائزهم[2].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، طبعة عيسى البابي الحلبي، ٢١٤/٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ٢١٤/٤. وانظر: ديوان حسَّان، شرح البرقوقيّ، ص ٣٠٥.

ورُوِيَ أنَّ قتيلة بنت النضر بن الحارث وكان أبوها قد أمر الرسول ﷺ بقتله ـ على رواية ابن رشيق[1] ـ بعد أنْ كَثُرَ إيذاؤه للنّبيّ ﷺ فاستوقفته منشدة قصيدتها:

يا راكباً ، إنَّ الأَثيل مظنةٌ ... من صبح خامسةٍ وأنت موفقُ
أبلغ بها ميتاً بأنَّ تحيةً ... ما إنْ تزالُ بها النّجائب تخفقُ
مني إليك وعبرةَ مسفوحةَ ... جادت بواكفها وأخرى تخنقُ
هل يسمَعَنِّي النّضرُ إن ناديته ... أم كيف يسمع ميتٌ لا ينطقُ
....
أمحمد يا خيرُ ضِنْءِ كريمةٍ ... في قومها ، والفحل فحل معرقُ
ما كان ضرّك لو مننت ولربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ
فالنّضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقّهم إنْ كان عتق يعتقُ

أمّا رواية ابن جعدبة التي أوردها ابن سلام الجمحيّ فتقول : (إنّه مات بسبب جرح أضناه، حتى عاف الطَّعام والشَّراب) . وأيّد بن سلام ما ذهب إليه برواية أخرى تقرِّر أنَّ الرَّسول ﷺ لم يقتل أحداً صبراً بعد بدر إلاَّ عقبة بن أبي معيط[2].

ونلاحظ أنَّ الرَّسول ﷺ قد وقف واستمع لشعر قتيلة ، ولو كان الشِّعْر في حد ذاته مكروهاً لما فعل الرَّسول المعصوم ذلك. كما نلاحظ أنَّ الشِّعْر لم يكن سبباً في القتل؛ بل لو لم يسبق القدر لكان سبباً في حياة النّضر.

(١) ابن رشيق: العمدة، ٥٦/١.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشِّعْراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٠٠-١٠١.

ونذكر موقفاً آخر مع أبي عزة الجمحيّ ـ وهو أحد شعراء مكة ـ كانت للرَّسول ﷺ معرفة به قبل الهجرة، وهو كثير الولد، قليل المال. ولما كانت معركة الشِّعْر بين معسكر الإيمان بالمدينة المنورة وبين معسكر الكفر في مكة، كان أبو عزة ضمن شعراء الشِّرك، فأُسِرَ يوم بدر كافراً، فقال : يا رسول الله، إني ذو عيال وحاجة قد عرفتها، فامنن عليَّ ـ صلى الله عليك ـ فقال: (على ألاّ تعين عليّ؟) ـ يريد شعره ـ قال: نعم . فعاهده وأطلقه، فقال:

ألا أبلغاً عني النّبيّ محمداً ... بأنّك حقٌّ والملك حميدُ
وأنت امرؤ تدعو إلى الرُّشدِ والتُّقى ... عليك من اللهِ الكريمِ شهيدُ
وإنّك مَنْ حاربته لحاربٌ ... شقي ومَنْ سالمته لسعيدُ
ولكن إذا ذكرته بدراً وأهلها ... تأوب مني حسرة وتعود[1]

لكن أبا عزة لم يفِ بالعهد الذي ضربه مع الرَّسول ﷺ بسبب إغراء صفوان بن أمية له بالمال، فانخرط ثانية في معسكر الشِّرك، وعاد يوم أُحُد، وأُسِرَ ثانية وأعاد ذات الطَّلب: يا رسول الله ، إنّي ذو عيال وذو حاجة قد عرفتها، فامنن عليَّ ـ صلى الله عليك ـ فقال النّبيّ ﷺ كلمته الحكيمة التي سارت مثلاً: (لا يلدغ المؤمن من جُحْرٍ واحد مرّتين)[2].

وفي هذا الموطن نجد أنَّ الرَّسول ﷺ أطلق سراح أبي عزة الجمحيّ، وهو شاعر معروف. ولو كان الإسلام يشنُّ حرباً على الشِّعْر والشِّعْراء لكانت

(١) د. حسن بشير: مكانة الشِّعْر في مسيرة الحياة الأدبية في صدر الإسلام، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص ٢٨-٢٩.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، حديث رقم ٥٧٨٢، الطبعة الثالثة، دار ابن كثير، بيروت، تحقيق مصطفى ديب البغا، ٢٢٧١/٥.

سانحةً للتخلُّص من واحد منهم، قد أتى يحمل السلاح لحرب الرَّسول ﷺ. ولكن الأمر عكس ذلك تماماً، فقد مَنَّ الرسول ﷺ وفكَّ أسره، مكتفياً بالاشتراط عليه ألاَّ يعود إلى معسكر الشِّرك مشاركاً في حملتهم ضدّ الإسلام.

كما نجد أنَّ الشرط الذي طُلِبَ منه الالتزام به ليس عدم قول الشِّعْر؛ بل عدم الإعانة على الرَّسول ﷺ والمسلمين بشعره. ولو كان الشِّعْر مرفوضاً في الإسلام بصورة أساسيّة لكان الشَّرط المنطقيّ عدم قول الشِّعْر.

ومما نلاحظ أيضاً أنَّ هذا الموقف من الرَّسول ﷺ يجعل للشِّعْر أهمية خاصّة، ويقدم هذه الأهمية على حرب السّلاح، فقد جاء أبو عزة محارباً في جيش الكفر، فلم يشترط عليه الرَّسول ﷺ ألا يعود محارباً بالكلمة الشَّاعرة.

تلك لمحات توضِّح موقف الرَّسول الكريم ﷺ من الشِّعْر، وتكشف عن منزلته المرموقة لديه، فهي منزلة مودة وتعاون ووفاق! ولكن هناك كثير من القضايا المثارة حول هذا الموضوع وسوف نشير ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى بعضها في المبحث الثالث.

المبحث الثالث
شبهات حول الرُّؤية النَّبويّة الشَّريفة للشِّعْر

جاءت نصوص كثيرة في القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة تبدو بخلاف ما أثبتناه، وهي عبارة عن شبهات ينبغي الرَّدّ عليها، وسوف أتناول أبرزها فيما يلي:

أولاً: إنَّ القرآن الكريم ذم الشِّعْر في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشِّعْراء: ٢٢٤-٢٢٦].

ثانياً: قول النّبيّ ﷺ: (لأنْ يمتليء جوف أحدكم قَيحاً حتّى يَرِيَهُ؛ خيرٌ له من أنْ يمتليء شعراً)[1].

ثالثاً: إنَّ الله تعالى قد نزَّه النّبيّ ﷺ عن الشَّاعريّة، فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

رابعاً: هنالك زعم بأنَّ الشِّعْر تخلّى عن مكانته المرموقة التي كان عليها من قبل، وكسدت سوقه في عصر صدر الإسلام[2].

أمَّا قولهم بأنَّ الله تعالى ذم الشِّعْر في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشِّعْراء: ٢٢٤-٢٢٦].

فنورد في الرَّدّ على هذه على هذه الشُّبهة قول ابن رشيق القيروانيّ معلّقاً على هذه الآية: "وأمَّا احتجاج مَنْ لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ

(١) البخاريّ: صحيح البخاريّ، طبعة دار الجيل، بيروت، ٥٤/٨. وقوله: (حتَّى يَرِيَهُ) ليس في البخاريّ، ولكن في سُنن ابن ماجة ومسند أحمد.

(٢) د. صالح آدم بيلو: من قضايا الأدب الإسلاميّ، دار المنارة للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ص ٢٧.

يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشّعْراء: ٢٢٤-٢٢٦]. فهمٌ غلط وسوء تأوّل؛ لأنَّ المقصودين بهذا النَّص شعراء المشركين الذين تناولوا الرَّسول ﷺ بالهجاء، ومسُّوه بالأذى، فأمَّا سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله تعالى ونبَّه عليهم فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشّعْراء: ٢٢٧] يريد شعراء النّبيّ ﷺ، الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين بدلاً عنه، كحسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقد قال النّبيّ ﷺ فيهم: (ما رواه عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: ، قلت: يا رسول الله قد أنزل في الشِّعْر ما قد أنزل، فقال النّبيّ ﷺ: (إنَّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنَّما ترمونهم نضح النَّبل)[1].

والذين يقولون في هذه الآيات الكريمات إنَّه رفض للشِّعْر سليزمهم القول برفض الإيمان في الاستثناء المشار إليه في صورة العصر، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣]، فواضح أنَّ أسلوب الاستثناء هنا يخرج المؤمنين المسلمين المتواصين بالصَّبر من دائرة الخسران، كذلك آيات الشِّعْراء فيها إخراج للشِّعْراء الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات من دائرة الغواية والضَّلال، وليس في الآيات إنكار أو ذم للشِّعْر أو الشِّعْراء على الإطلاق كما يتوهَّم الكثيرون .

(١) ابن حبان: صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت، حديث رقم ٥٧٨٩، ١٠٢/١٣. وفي مسند الإمام أحمد (لكأنَّ ما ترمونهم به نضح النَّبل)، برقم ٢٥٩٢١.

أمَّا حديث النّبيّ ﷺ : (لأن يمتليء جوف أحدكم قَيحاً يَرِيَهُ؛ خيرٌ له مـن أنْ يمتليء شعراً) [1]، جاء في تفسير القرطبيّ: "قال علماؤنـا: وإنَّمـا فعـل الـنّبيّ ﷺ هذا مع الشَّاعر لِمَا علم من حاله، فلعلَّ هذا الشَّاعر كان ممن عرف من حاله أنَّه قد اتخذ الشِّعْر طريقاً للتكسُّب فيفرط في المدح إذا أُعْطِي، وفي الهجو والـذم إذا مُنِع فيؤذي النَّاس في أموالهم وأعراضهم ولا خلاف في أنَّ مَـنْ كـان علـى مثـل هذه الحالة فكلّ ما يكتسبه بالشِّعْر حرام.." [2].

وجاء في "العمدة": "هذا الحديث إنَّما هو فيمن غلب الشِّعْر على قلبـه، وملك نفسه، حتَّى شغله عن دينه ، وإقامة فروضه ، ومنعه عـن ذكـر الله تعـالى، وقراءة القرآن الكريم...)[3].

ويذهب الشَّيخ الشّنقيطيّ إلى أنَّ الحديث الصَّحيح والمصـرّح بـأنَّ امـتلاء الجوف بالقيح المفسد له خير من امتلائه بالشِّعْر محمول علـى مَـنْ أقبـل علـى الشِّعْر واشتغل به عن الذِّكر وتلاوة القرآن، والطَّاعة لله تعـالى . علـى الشِّـعْر القبيح المتضمّن للكذب الباطل ، كذكر الخمر ومحاسن النِّساء الأجنبيـات ونحـو ذلك[4] .

أمَّا قولـه تعـالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يـس: ٦٩]؛ فهـذه الآية ليس لها علاقة بذم الشِّعْر، ولا بتحقير الشِّعْراء؛ بل إنَّ الله تعالى باعد بين

(١) البخاريّ: صحيح البخاريّ، ٤٥/٨، مرجع سابق. وليس فيـه قولـه: (يَرِيَـهُ)؛ بـل في مسـلم بـرقم ٤١٩٢، وسنن التّرمذيّ برقم ٢٧٧٨.

(٢) القرطبيّ: الجامع لأحكام القرآن الكريم، ٨٦١/١٣.

(٣) ابن رشيق: العمدة، ٣٢/١.

(٤) الشّنقيطيّ: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، طبعة دار الفكر، ١٤١٥هـ ١٩٢٥م، ١٠٥/٦.

الرَّسول ﷺ والشَّاعريّة، ولا بُدَّ أنْ تكون هنالك حكمة من نفي تلك الشِّاعريّة ردّاً من القرآن الكريم على ما كان يشيعه المشركون ويتحدثون به من أنَّ القرآن شعر، وأنَّ محمداً شاعر، وأنه عليه السلام لم يأت بكلام منزل من عند الله تعالى ، وإنَّما الذي يجيء به شعر من جنس أشعارهم المعروفة، وكان طبيعيّاً أنْ يتصدّى القرآن لهذا الاتهام بنفي الشَّاعريّة عن النّبيّ ﷺ حتَّى يثبت أنَّ القرآن الكريم كلام الله تعالى المنزل على الرَّسول، وأنَّ النّبيّ لا يتلو كلاماً من عنده[1]. وإنْ كان نفي الكتابة والقراءة عن النّبيّ الأميّ ﷺ لا يقدح فيهما بشيء؛ بل استخدما في الدَّعوة، فكذلك نفي الشَّاعريّة أو الشِّعْر عنه لا يقدح في الشِّعْر بشيء، فكما هو معلوم أنَّه كان للنَّبيّ ﷺ شعراء يدافعون عنه وعن دعوته.

أمَّا الزَّعم القائل بأنَّ الشِّعْر تخلّى عن مكانته المرموقة التي كان عليها قبل وكسدت سوقه في عصر صدر الإسلام، فنردّ عليه بقولنا: تذخر كتب التّاريخ والسِّير والتّراجم والمغازي بكثير من الأشعار في صدر الإسلام، فليس هنالك حدث كبير إلاَّ ويواكبه شعره، ومن زعم أنَّ الشِّعْر ضعف فقد اغترّ بقول ابن خلدون في مقدمته إذ يقول: "انصرف العرب عن الشِّعْر أوّل الإسلام مما شغلهم من أمر الدِّين والنُّبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك، وسكتوا عن الخوض في النَّظم والنَّثر زمناً، ثُمَّ استقرّ ذلك وأونس الرُّشد، ولم ينزل الوحي في تحرير الشِّعْر وخطره، وسمعه النّبيّ ﷺ، وأثاب عليه، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه"[2].

(١) د. محمد عبد القادر أحمد: دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلاميّ، ص ٤٤-٤٥.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، المطبعة البهية، ص ٤٢٧.

يقول الدّكتور/ شوقي ضيف: "ووضح أنَّ هذا لا يَصْدُقُ على المشركين؛ لأنَّهم لم ينشغلوا بالدَّعوة".

ومعروف أنَّ جمهور القبائل العربيّة إنَّما دخل في الإسلام بعد فتح مكة في العام الثّامن للهجرة. وإذن فانصرافهم عن الشِّعْر ـ إنْ صحَّ ـ إنَّما كان لمدة عامين إلى أنْ انتقل الرَّسول ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى. وابن خلدون بنفسه ينقض كلامه بما قاله في آخره: "لأنَّ الرَّسول ﷺ سمع الشِّعْر وأثاب عليه"(١).

وفي الحقيقة إنَّ الذي دفع ابن خلدون لهذا الكلام ما جاء عن ابن سلام وتنقلته الرّواة من قولهم عنه: "فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ـ أي عن الشِّعْر ـ، وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والرُّوم، ولهت عن الشِّعْر وروايته، فلما كَثُرَ الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار؛ راجعوا رواية الشِّعْر، فلم يؤولوا إلى كتاب أو ديوان مكتوب"(٢).

ويقصد ابن سلام تشاغل العرب عن الرّواية وليس الإبداع والإنتاج الأدبيّ ـ كما ذكرنا من قبل ـ وإلاَّ لم يذكر في موضع آخر: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافراً لأتاكم علم وشعر كثير"(٣).

خاتمة:

بعد هذه الدّراسة المقتضبة أودُّ أن أشير إلى بعض النّتائج في النّقاط التّالية:

---

(١) شوقي ضيف: العصر الإسلامي، القاهرة، طبعة عام ١٩٦٣م، ص ٤٣.

(٢) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشِّعْراء، السفر الأول، شرح محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ص ٢٤-٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥.

- نلاحظ أنَّ موقف الدِّين الحنيف، والنُّبوة الشَّريفة من الشِّعْر موقف متزن، فقد أقرّ منه الدّاعي للفضيلة والخير، وأنكر الدّاعي للرّذيلة والشَّرّ، كما في الحديث الشَّريف: (الشِّعْر كالكلام، حسنه حسن، وقبيحه قبيح)[1].
- وهذا الموقف ينطبق على القصة والمسرح وكل وسائل الإعلام، فهي سلاح ذو حدين يمكن أنْ يوجه للخير أو الشَّرّ.
- أمَّا الزعم القائل بأنَّ الشِّعْر تخلَّى عن مكانته المرموقة وكسدت سوقه في عصر النُّبوة؛ فالإسلام رفع قيمة الشِّعْر، وجعله ربطاً للأرض بالسماء والدنيا بالآخرة، كما جاء في كثير من النُّصوص السَّابقة بدلاً من الطَّيش، والسَّفه، والهجاء الوقح، فقد أمر بالكيف وليس بالكم.
- هذَّب الإسلام الأغراض الشِّعْرية الجاهليّة، فالهجاء أصبح للمشركين دفاعاً للنُّبوة والدَّعوة، كما قال الرَّسول ﷺ لحسَّان بن ثابت: (اهجهم وجبريل معك)، والمدح أصبح للنُّبوة الكريمة والشهداء الأخيار.
- وفي الحقيقة هذه الورقة البحثيّة تُعَدُّ تمهيداً لبحث موسَّع عن موقف الإسلام من الشِّعْر بصفة عامة، تتناول كل الرُّؤى القرآنيّة والنَّبويّة، وأقوال السَّلف الصَّالح كالخلفاء الرَّاشدين، وعلماء التابعين، والآراء الأخرى المختلفة مدعمة بالنُّصوص .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيّد الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه والتَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

(١) البخاريّ: الأدب المفرد، ص ١٧٤.